﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

[الزّخرف: 21 - 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

عـدمُ امـتـلاكِ البُرهان العقليِّ مُـؤذِنٌ بـعـدمِ امتلاكِ القاطِعِ النَّقليِّ

لمّا أبطلَ النَّظمُ بالدَّليلِ العقليِّ صحَّةَ عبادتِهم الأوثانَ، وأبطلَ دَعواهم أنَّ اللّه تعالى قد شاءَ مشيئةَ رِضًا لعبادتِهم لها بنفيِ العلْمِ اليقينيِّ عنهم، وأبطلَ دَعواهُم أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه تعالى بأنَّهم لم يشهدوا خلقَهم حِسًّا، وما يَستلزِمُهُ عَقلًا من نقصانٍ في حقيقةِ الألوهيَّة؛ بيَّنَ النَّظمُ أنَّه لا سندَ لهم على تلك الدَّعاوى الباطلةِ مِنَ النَّقلِ أيضًا، فكيفَ يُقدِمونَ على أمرٍ في حقِّ اللّه تعالى لم يُنقَلْ، ولم يأمُرِ اللّه تعالى به، وإنْ كان لا سندَ لهم من الحسِّ والعقلِ والنَّقل، فلم يبقَ لهم إلّا التَّقليدُ للآباءِ على ضَلالاتِهم، والتَّقليدُ لا يُغني من الحقِّ شَيئًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾: (مسك) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه[1]، وفي فلانٍ إمساكٌ ومَسَاكٌ ومَسكةٌ: كلُّه من البُخْلِ، وأمسكتُ الشَّيءَ، وتمسَّكتُ به، واستمسَكْتُ به، كلُّه بمعنى: اعتصمْتُ به، وأمسَكْتُ عن الكلام، أي: سَكَتُّ[2]، واستمسَكْتُ بالشَّيء؛ إذا تحرَّيتَ الإمساكَ، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43]، وقال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[3]، والمرادُ به في الآية: مُبالِغونَ في التَّمسُّك بالكتابِ مُتعلِّقونَ به تعلُّقًا شديدًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح: (مسك).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 768.

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: (أمم) أصلٌ واحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنهُ أربَعةُ أبوابٍ، وهيَ الأصلُ والمَرجِعُ والجَماعَةُ والدّينُ[1]، وأُمُّ الشَّيء: أصلُهُ، والأُمَّةُ: الجماعةُ، قال الأخفش: هو في اللَّفظ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ، وكلُّ جنس من الحيوان أمَّةٌ، والأُمَّةُ: الطَّريقةُ والدّينُ، يقال: فلانٌ لا أُمَّةَ له، أي: لا دينَ له، ولا نِحْلَةَ له[2]، ويقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِهِ أو إصلاحِهِ أو مَبدئِهِ أمٌّ، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمَعُهم أمرٌ مّا إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعُها: أمم، وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلالِ والكُفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مُجتمعٍ[3]، والمرادُ به في الآية: النِّظامُ والطَّريقةُ والدّينُ المُجمَعُ عليه.

3) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: (أثر) لَهُ ثَلاثَةُ أُصولٍ: تَقْديمُ الشَّيءِ، وذِكرُ الشَّيءِ، ورَسْمُ الشَّيءِ الباقي[4]، وأثَرُ الشَّيء: حصول ما يدلُّ على وجوده، يقال: أثَرَ وأثَّر، والجمعُ: الآثار، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27][5]، والأثرُ: بقيَّةُ ما تَرى من كُلِّ شيءٍ وما لا يُرَى بعدَ ما يُبْقي عُلْقَةً[6]، وتقولُ أيضًا: خَرَجتُ في إثره، أي: في أثَرِه، والأثَرُ بالتَّحريك: ما بقيَ مِن رَسْمِ الشَّيءِ وضربةِ السَّيف، وسُنَنُ النَّبيِّ ﷺ: آثارُهُ، واستأثرَ فلانٌ بالشَّيء، أي: استبدَّ به[7]، وأثَرُ الدّارِ بَقيَّتُها، والجَمْعُ آثارٌ مِثْلُ سَبَبٍ وأسْبابٍ[8]، والمرادُ به في الآية: أخبارُهُم والحِكاياتُ الَّتي تُتناقَلُ عَنهُم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أنكرَ اللّهُ سبحانَه على المشركينَ عبادتَهم للملائكةِ بلا دليلٍ ولا برهانٍ، وأبطلَ دَعواهم، أي: بل أأنزلْنا عليهم، وجئناهم بكتابٍ من قبلِ القرآنِ نطقَ بصحَّةِ ما يدَّعونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(2) الجوهري، الصّحاح: (أمم).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 85 - 86.
(4) ابن فارس، المقاييس: (أثر).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 62.
(6) الخليل، العين: (أثر).
(7) الجوهري، الصّحاح: (أثر).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (أثر).

من هذا الباطلِ، فهُم بهذا الكتابِ مُتمسِّكونَ؟ لم يثْبُتْ أنَّ لديهم كتابًا بذلك يَستمسِكونَ به، أي: إنَّهم لم يأتوا بحُجَّة أو دليلٍ من النَّقلِ أوِ العقلِ يؤيِّد ما ذهبوا إليه، وزَعَموه، بل إنَّهم اعترفوا بأنَّه لا سندَ لهم ولا حجَّةَ لديهم سِوى أنَّهم قلَّدوا آباءَهم وأسلافَهم فيما اعتقدوهُ، وهؤلاءِ بهذا التَّقليد قد تَرَكوا التَّبصُّر والتَّدبُّرَ فيما يحيطُ بهم من آيات بيِّناتٍ، ولو تأمَّلوا لهداهم ذلك إلى أنَّ اللهَ هو الحقيقُ أنْ يُعبَدَ وحدَهُ دونَ سِواه، وأنْ يُنزَّهَ عن الأولاد ذكورًا أو إناثًا[1].

تقليدُ الآباءِ في أُصولِ الدّين ضَلالٌ مُبين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ﴿أَمْ﴾:

عطفَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ بـ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ الدالَّةِ على الإضرابِ الانتقاليِّ كـ(بل)، "أي: بَل أأعْطَيْناهُم كِتابًا مِن قَبْلِ القُرْآنِ بأن يَعبُدوا غَيرَ اللهِ"[2]، والانتقال إمّا من قولِه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، لنفيِ أن يكونَ قولُهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ مُستندًا إلى دليلِ النَّقل، كما نفى أن يكونَ مُستنِدًا لدليلِ العقل[3]، أو مِن قوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾[4]؛ لنفي أنْ يكونَ لهم مستندٌ نقليٌّ، كما نفى أن يكونَ لدَعواهم أنوثةَ الملائكةِ مستندٌ منَ الحسِّ، فقد بانَ أنَّ كلَّ دَعاويهم مفتقرةٌ إلى دليلٍ حسّيٍّ أو عقليٍّ أو نقليٍّ، قال البيضاويُّ: "كأنَّه لمّا أبدى وجوهَ فسادِها، وحكى شُبهتَهم المزيَّفة؛ نَفَى أنْ يكونَ لهم بها علمٌ من طريقِ العقل، ثمَّ أضربَ عنه إلى إنكارِ أن يكونَ لهم سندٌ من جهةِ النَّقل"[5].

دَعاوى المُشركينَ خاليةٌ من الدَّليلِ الحسّيِّ والعقليِّ والنَّقليِّ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 795 - 796.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 631.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 269.
(5) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 89.

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

النَّفيُ بالاستفهام أبلغُ في الإنكارِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن النَّفي بأسلوبِ الاستفهام المقدَّرِ بعدَ (أم) العاطفة في قولِهِ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾؛ للدَّلالة على تنزيلِ هذا الأمرِ المنفيِّ منزلةَ الأمرِ المجهولِ الَّذي يُستفهَمُ عنه، ويرادُ معرفتُهُ مع أنَّه معلومٌ، والغرضُ من التَّنزيلِ الدَّعوةُ للمُخاطَبين إلى الجوابِ عن ذلك بالنَّفي، فيكون إقرارًا منهم على عدمِ الإيتاءِ المذكورِ معَ دلالةٍ على التَّوبيخ[1]، قال الرّازي: "والمَعنى أنَّهُم [هَل] وجَدوا ذَلِكَ الباطِلَ في كِتابٍ مُنَزَّلٍ قَبلَ القُرآنِ حَتَّى جازَ لَهُم أن يُعَوِّلوا عَلَيه، وأن يَتَمَسَّكوا بِه، والمَقصودُ مِنهُ ذِكْرُهُ في مَعْرِضِ الإنْكارِ، ولَمّا ثَبَتَ أنَّهُ لَم يَدُلَّ عَلَيهِ لا دَليلٌ عَقليٌّ ولا دَليلٌ نَقليٌّ؛ وجَبَ أن يَكونَ القَولُ بِهِ باطِلًا"[2].

دلالةُ الفعلِ الماضي: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾:

التَّكذيبُ بأبلغِ نفيٍ مقطوعٍ بحصولِه وتحقُّقه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي المنفيِّ مدلولُهُ بالاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾؛ دلالةً على نفيِ الإيتاءِ في الماضي؛ ليكونَ النَّفيُ مَقطوعًا بحصولِهِ وتحقُّقِه، ودعوةً للمُخاطَبين إلى تذكُّرِ حالِهم السّابقة، هل آتاهُمُ اللّه كتابًا يُقرُّهم على شيءٍ ممّا ادَّعَوه، وفي التَّعبير بفعلِ الإتيانِ دلالةٌ على الإعطاءِ والمنحِ لكتابٍ بكلِّ يُسرٍ وسُهولةٍ يُجيزُ لهم الشِّركَ.

دلالةُ الفاعلِ والمفعولِ في: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾:

تعظيمُ الفاعلِ تفخيمٌ للفعلِ المنفيِّ

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ الماضي المُسنَدِ إلى ضميرِ العَظَمة في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ دلالةً على عظمةِ الفاعلِ وفَخامتِه الَّذي لم تتعلَّق قدرتُهُ بفعلِ الإيتاءِ، فيَكتسِبُ الفعلُ فخامةً؛ ليكونَ النَّفيُ أعمقَ وأشدَّ، كما تعلَّقَ الفعلُ بضميرِ الغَيبةِ الواقعِ

(1) الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 627.

مَفعولًا به أوَّل؛ لبيانِ غَيبتِهم عن الخطابِ وعدمِ تعقُّلِهم لفَحواه؛ إذ الأصلُ في الاستفهامِ توجيهُهُ لمُخاطَب.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كِتَٰبًا﴾ في السّياق:

تعميمُ المنفيِّ أبلغُ في التَّكذيب

عبَّر النَّظمُ عن المفعولِ به الثّاني نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ دلالةً على العُموم؛ إذ النَّكرةُ في سياقِ النَّفي تفيدُ العموم، والمعنى: لم نُؤتِهم أيَّ كتابٍ من قبلُ يُقرُّهُم على شِركهم وأوهامِهم.

دلالةُ النَّعتِ بشبهِ الجُملة: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾:

استغراقُ الأزمنةِ يُؤكِّدُ الانتفاءَ ويُحقِّقُهُ

عبَّر النَّظمُ بشبهِ الجُملةِ الواقعةِ نَعتًا للنَّكرة في قولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ لتحديدِ زمنِ الإتيانِ للكتابِ المُؤتى لهم بأنَّه قبلَ القرآنِ الَّذي يَنهاهُم عن ذلك؛ إذ لو جاءَهم كتابٌ من قبل القرآن يُجيزُ لهم الشِّركَ؛ وقعَ التَّنافي بينَ الكتابين، ولمّا نفى إتيانَهم بكتابٍ قبلَ القرآن؛ ثبتَ عدمُ استنادِهم إلى دليلٍ نقليٍّ تُعارضُ آياتُهُ آياتِ القرآنِ في ذلك، وإنَّما عبَّر عن الظَّرف الزَّمانيِّ بـ﴿مِّن﴾ المزيدةِ للتَّوكيد؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ وجودِ كتابٍ على سبيل الاستغراقِ الزَّمانيِّ القبليِّ لنزولِ القرآنِ الكريم.

مَرجِعُ الضَّميرِ في: ﴿قَبْلِهِۦ﴾:

نباهةُ الشَّأنِ تُغني عنِ الذِّكرِ

عادَ الضَّميرُ في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ من قولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ على القرآنِ الكريم، مع أنَّه لم يرد له ذِكرٌ في السّياق؛ للدَّلالةِ على أنَّ نباهةَ شأنِهِ تُغني عن تقدُّمِ مرجعٍ له، ولأنَّ دلالةَ قوله: ﴿كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تشيرُ إلى أنَّ الكتابَ المتأخِّرَ هو القرآنُ الكريم الَّذي هدمَ الشِّرك، وأبطلَهُ، وأجاز الزَّمخشريُّ عوده أيضًا إلى الرَّسول[1]، ورأى ابنُ كثير عَودَهُ إلى شِركِهم[2].

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 245.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 224.

دلالةُ (الفاء) في: ﴿فَهُم بِهِۦ﴾:

الجديرُ بالمُخاطَبينَ تعقيبُ الإتيانِ بالاستمساكِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ على ما قبلَها بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ والتَّسبُّبِ؛ إذ يَستعقِبُ الإتيانَ الاستمساكُ، ويتسبَّبُ عنه، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترتُّبِ الاستمساكِ عن الإتيانِ، وأنَّ ذلك هو الجديرُ بالمُخاطَبينَ؛ لما في ذلك الاستمساكِ من مصالحَ عظيمةٍ، قال القونويُّ: "والفاءُ في ﴿فَهُم﴾ للسَّببيَّة، والإنكارُ مُتوجِّهٌ إليهما جَميعًا، أي: لا كتاب فضلًا عن التَّمسُّك به"(1).

دلالةُ استعمالِ ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اللّائقُ بالمؤمنين الاستمساكُ بالقُرآنِ الحَكيم

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ الدّالَّ بمادَّتِه على طلَبِ المَسْك؛ مبالغةً في التَّمسُّكِ بالشَّيء، حتى كأنَّ المتمسِّكَ يطلبُ المسكَ، ويريدُ تحصيلَه، وفي هذه الصّيغةِ دلالةٌ على أنَّ التَّمسُّكَ باقٍ مهما تشوبُهُ المُنغِّصاتُ والمعوِّقات، فهو لا يريدُ التَّفلُّتَ منه، ويحافظُ على البقاءِ ماسِكًا به، ففيه: "مُبالَغَةٌ في (مُمْسِكونَ)، يُقالُ: أمْسَكَ بالشَّيءِ، إذا شَدَّ عَلَيهِ يَدَهُ، وهو مُستَعمَلٌ مَجازًا في مَعنَى الثَّباتِ عَلَى الشَّيءِ، كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43]"(2)، كما دلَّت صيغةُ اسمِ الفاعلِ على الاستمرارِ والدَّوام على حالةِ المَسْك، وفي ذلك إرشادٌ للمؤمنينَ بأنَّ اللّائقَ بحالِهم الاستمساكُ بالقُرآن الحَكيم، قال ابن عاشور: "وفي هَذا ثَناءٌ ثالِثٌ عَلى القُرآنِ ضِمنيٌّ؛ لاقتِضائِهِ أنَّ القُرآنَ لا يَأتي إلّا بِالحَقِّ الَّذي يُستَمْسَكُ بِهِ"(3).

دلالةُ اسميَّةِ الجُملةِ في: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 186.

﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوتِ هذا الحُكْم ودَوامِه؛ إذ شأنُ العاقلِ الحَصيف أن يَستمسِكَ بأحكامِ الله تعالى؛ لأنَّها النَّجاةُ الحقيقيَّةُ من كلِّ الأضرارِ والآفاتِ والأوهام.

استمرارُ المُؤمنينَ على الاستمساكِ بالذِّكر الحَكيم

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحَصْرِ؛ إذ الاستمساكُ لا يكون إلّا بالكتاب المنزَّلِ لا بغيره، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ (المسك) قد يكون به وبغيرِه، وأمّا (الاستمساك)؛ فإنَّه لا يكونُ إلّا به دونَ غيره؛ ممّا يدلُّ على أنَّ المسكَ في الحالةِ الطبيعيَّة، وأمّا عند التَّعرُّض للفتنِ الَّتي تجعلُ المكلَّفَ ضعيفًا؛ فإنَّ عليه أنْ يَستمسِكَ به، ولا يتركَهُ إلى غيره؛ مهما واجهتْهُ من ظروفٍ.

عندَ الفِتن والخُطوبِ يتأكَّد الاستمساكُ بكلامِ علّامِ الغُيوب

دلالةُ ﴿بَلْ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالحرف ﴿بَلْ﴾ العاطفِ قولَهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ﴾ على مضمونِ قوله: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الإضرابِ الإبطاليِّ للمنفيِّ المفهوم من سلبِ العلمِ عنهم أو وجودِ النَّقلِ المُثبتِ لشركهم، فأبطلَ النَّظمُ امتلاكَهم لأيِّ دليلٍ يثبتُ المطلوبَ، وأثبتَ لهم دليلًا واحدًا لا يُسمِنُ، ولا يُغني من جوعٍ، ألا وهو التَّقليدُ للآباءِ المانعِ لهم من التَّوحيد، "فَكانَ هَذا الكَلامُ مَسوقًا مَساقَ الذَّمِّ لَهُم؛ إذ لَم يُقارِنوا بَينَ ما جاءَهُم بِهِ الرَّسولُ وبَينَ ما تَلَقَّوهُ مِن آبائِهِم، فَإنَّ شَأنَ العاقِلِ أن يُمَيِّزَ ما يُلْقَى إلَيهِ مِنَ الاختِلافِ، ويَعْرِضَهُ عَلى مِعْيارِ الحَقِّ"[1].

التَّقليدُ مانعٌ من التَّوحيد

دلالةُ استعمالِ الفعلِ الماضي ﴿قَالُوٓاْ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بفعلِ القولِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

جوابُ الاستفهامِ الإنكاريِّ مُزيلٌ للإنكار

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ جوابًا عن الاستفهاماتِ السّابقة، وإنْ قُصِدَ منها الإنكارُ والتَّوبيخ؛ لأنَّ دلالةَ الاستفهامِ الأصليَّةَ ملحوظةٌ، وتحتاجُ إلى جوابٍ؛ ليندفعَ الإنكارُ والتَّوبيخُ المُبتنى عليه، واختارَ النَّظمُ فعلَ القول لما فيه من معاني الاعتقادِ الدّالَّةِ على الاعتدادِ بالرَّأيِ الفاسدِ الصّادرِ منهم، وكانت صيغةُ المضيِّ مفيدةً تحقُّقَ ذلك القولِ وصُدورِهِ منهُم على سبيلِ القَطْعِ.

دلالةُ جملةِ مقولِ القَوْلِ:

التَّقليدُ للآباءِ طريقةٌ عَمْياء

عبَّر النَّظم عن مقولِ القولِ بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، وهي جملةٌ اسميَّةٌ في محلِّ النَّصب مفعولٌ به؛ دالَّةٌ على افتقادِ الدَّليلِ الحسّيِّ والعقليِّ والنَّقليِّ، وامتلاكِ دليلِ التَّقليدِ الذي لا قيمةَ له في أصولِ الدّينِ وبابِ الاعتقادات، فقد كانوا مُتَّبعينَ لآبائِهم سائرينَ على طرائقِهم في الاعتقاداتِ دونَ إعمالِ عقلٍ أو نظرٍ في تلك المناهجِ والطَّرائقِ المُنحرفةِ عن الدّيانةِ الأصليَّة.

سرُّ التَّوكيدِ بالأداةِ (إنَّ):

ملكَ التَّقليدُ قلوبَ المُشركين

اختارَ النَّظمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ ذلك المَعنى ودوامِه، وقد صُدِّرت الجملةُ بأداةِ التَّوكيد (إنَّ)؛ لتحقيقِ ذلك المعنى الثّابتِ؛ ردًّا على مَن يعتقدُ أنَّهم كانوا يَمتلكونَ دليلًا غيرَ التَّقليد، أو أنَّهم نظَروا في البراهين، وأعملوا العقولَ في الآيات، فأكَّد النَّظمُ اقتصارَهم على تقليدِ الآباء من دونِ هدًى أو فهْمٍ.

دلالةُ اللَّفظِ ﴿وَجَدْنَآ﴾:

التَّعبيرُ بالوجود يفيد دوامَ الحالةِ المَعهودة

استعملَ النَّظمُ الفعلَ (وجَد) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على رُؤيةِ الآباء على فعلٍ مُعيَّنٍ لازمٍ وسماعِهم ذلك بالتَّناقُل، وإنَّما عبَّر عن فعلِ الرُّؤيةِ والسَّماعِ بالوُجود؛ لتأكيدِ تلبُّسِهم بالفعلِ متى ما رأوهم، وسَمِعوا أخبارَهم؛ لأنَّ الوجودَ صفةٌ ملازمةٌ للموجودِ لا يَنفكُّ عنه، فيكونُ التَّعبيرُ بـ(الوجود) مُفيدًا لدوامِ الآباء على تلك

الحالةِ المَعهودة، كما أنَّ فعلَ الوجود مُغنٍ عن فعلِ الرُّؤيةِ والسَّماعِ معًا؛ لأنَّ التَّعبيرَ بفعلِ الرُّؤيةِ لا يتحقَّقُ مع جميعِ الآباء، وفعلِ السَّماع لا يتحقَّقُ إلّا مع المنقولةِ أخبارُهم، ولا يكفي لإثباتِ مُلازمتِهم ذلك الفعلَ، وجعلَ النَّظمُ الجملةَ الفعليَّةَ الماضيةَ خبَرًا لـ(إنَّ)؛ للدَّلالةِ على حدوثِ ذلك المعنى في الماضي بشكلٍ متحقَّقِ الوقوعِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ: ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

المنع من اتِّباع الأبوَّةِ المُنحرفةِ عن المنهاج

عدَّى النَّظمُ فعلَ الوجود إلى المفعولِ به المضافِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدَّلالة على الاستغراقِ، أي: جميعَ الآباء الَّذين رَأيناهُم، أو سَمِعْنا أخبارَهم، فالمرادُ بـ(الآباء) ما يصدقُ بالأب وما فوقَهُ من الأجداد؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم أبٌ لما تحته، وفي التَّعبيرِ عن الأسلافِ بلفظ (الآباء) ما يدلُّ على استدلالِهم بعمَلِ الآباء المُتوارثِ، "وهُم أرجحُ منّا عُقولًا وأصحُّ منا إفهامًا"[1]، ولا يكونُ إلّا عن أصلٍ في وهمِهم، لكنَّهم أغفَلوا النَّظرَ عنِ انحرافٍ يحدثُ في الأسلافِ، ويتمُّ توارثُهُ في الأحفاد.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾:

مُلابَسةُ الطَّريقة للآباءِ كالدَّليل على صحَّةِ عمَلِ الأبناء

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ عدَّى النَّظمُ فعلَ الوجودِ إلى المفعولِ به الثّاني المكوَّنِ من الجارِّ والمجرور؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا على طريقةٍ عندَ وجودِهم ورؤيتِهم لهم، والغرضُ من تعديةِ الفعلِ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدَّلالةُ على التَّلبُّسِ بتلك الحالة، وذلك الوضعِ؛ حتى كأنَّ الحالة قد علتهم، واشتملَتْ عليهم، فـ "﴿عَلَىٰٓ﴾ استعارةٌ تَبَعيَّةٌ لِلمُلابَسَةِ والتَّمَكُّنِ"[2]، وفيه دلالةٌ على عدمِ تقوُّلِهم على الأسلاف؛ إذ وجَدوهم على تلك الشّاكلةِ وتلك الدّيانة مِن دون تأثيرٍ لهم فيهم، أو تحريفٍ لطريقتِهم الَّتي رأوهم عليها.

(1) الشربيني، السّراج المنير: 3/ 558.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

دلالةُ الاستعارةِ في: (الأُمَّة):

إيـهـامُ المُؤمنينَ بـقـوَّةِ حُـجَّـةِ المُقلِّدين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الدّينِ والطَّريقةِ والمُعتقَدِ بالأمَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، لتوحي بأنَّهم كانوا مُتَّفقينَ على ذلك المبدأ وتلك الطَّريقة، والأمَّةُ منَ (الأمِّ)، وهو القصدُ، فالأمَّةُ: الطَّريقةُ التي تُؤَمُّ، أي: تُقصَدُ، كالرُّحْلة للمَرحولِ إليه، والأمَّةُ: الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الآمُّ، وهو القاصدُ"[1]؛ ولذا تُطلَقُ الأمَّةُ على الدّين؛ لأنَّ الدّينَ يُقصَدُ، و"لأنَّ القومَ كانوا يَجتمِعونَ على دينٍ واحدٍ، فتقامُ الأمَّةُ مكانَ الدّين، ولهذا قيلَ للمُسلمين: أمَّةُ محمَّد ﷺ؛ لأنَّهم على ملَّةٍ واحدةٍ، وهي الإسلامُ"[2]، فيقوى استدلالُهم على صحَّةِ التَّقليد بعملِ الجمعِ الكثيرِ وعدَمِ تفرُّقِ الكلمةِ، وفي تنكيرِ (الأمَّة) ما يُنبئُ عن التَّعظيمِ لتلك الطَّريقةِ والدّيانةِ حسبَ مُعتقدِهم الزّائف.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ﴾:

التَّديُّنُ المشهورُ أفـضـلُ مـن التَّديُّنِ المُبتدَعِ المَهجور

عطفَ النَّظمُ الجملةَ الاسميَّةَ من قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ على الجملةِ الاسميَّة قبلَها؛ للدَّلالةِ على الجمعِ والاقترانِ بينَ وجودِ الآباءِ على منهاجٍ معيَّنٍ مسلوكٍ مشهورٍ، واتِّباعِ ذلك المنهاجِ وذلك الدّينِ المُتوارَث، فبينَ الجملتَين مُحسِّنُ الاتِّصالِ من تناسُبِهما خبرًا لفظًا ومعنًى، والمعنى: أنَّه لم يكنْ تديُّنُهم بدعيًّا ومُستحدَثًا كالدّين الجديد، بل دينٌ أصيلٌ يستمدُّ مشروعيّتَهُ من تقليدِ الآباءِ وانتشارِهِ وشُهرته، والهدايةُ تحصلُ باتِّباعِ التَّديُّنِ المشهورِ دونَ التَّديُّنِ الغريبِ المهجورِ في الواقعِ والمُجتمَع، والحقُّ أنَّ هذا التَّقليدَ إنَّما يصحُّ مع الدّينِ الحقِّ دونَ ما حدثَ فيه الانحرافُ؛ "لأنَّه لا حُجَّةَ للآباءِ أيضًا، فلا علمَ لهم؛ لأنَّه لو كان لهم حُجَّةٌ؛ لكان

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 245.

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 255.

للأبناءِ حجَّةٌ أيضًا، بل لا تقليدَ في الحَقيقَةِ؛ لكونِهم مُتَّبعينَ الحُجَّةَ حينَئِذٍ"[1]، والغرضُ من الخبرينِ المتعاطفينِ الإقرارُ بالتَّقليد، لكنَّ هذا تقليدٌ نافعٌ وصحيحٌ بزعمِهم؛ إذ هم يتَّبعونَ آباءَهم، ولم يَأتوا بشيءٍ من عندِ أنفُسِهم، وآباؤُهم كانوا على الحقِّ والبرهانِ، لكنَّ ذلك باطلٌ في الاستدلال؛ إذ لم يكن آباؤُهم مُجمِعينَ على ذلك، ولم يَستنِدوا إلى بُرهانٍ منقولٍ أو معقولٍ، بل كانوا مُنحرفينَ عن ديانةِ إبراهيمَ عليه السلام.

دلالةُ تكرارِ (إنّا) في: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾:

الـرَّدُّ عـلى نُـفاةِ التَّقليد بتعدُّدِ التَّوكيد

كرَّرَ النَّظمُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقويةِ الخبرِ الدّالِّ على حصولِ الاهتداءِ النّاجِمِ عن اتِّباعِ آثارِ الآباءِ والأسلافِ؛ دفعًا لشكِّ مَن يتوهَّمُ أنَّ ذلك التَّقليدَ خطأٌ محضٌ لا يجوزُ العملُ به؛ مبالغةً منهم في التَّزييفِ وتقويةً للسَّندِ الكاذبِ.

دلالةُ تقديمِ الحالِ: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾:

الـتَّـعـريـضُ بضلالِ أصحابِ الدّينِ الجديد

قدَّمَ النَّظمُ شبهَ الجُملة الواقعة حالًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تقييدِ حالةِ الاهتداءِ بكونِهم سائرينَ على تلك الآثار، وعاملينَ بتلك الطَّريقةِ والدّيانة الموروثةِ، فيُفيد تخصيصَ الاهتداءِ بكونِهم سالكينَ على تلك الآثارِ دونَ ما عداها، وفيه تعريضٌ بأصحابِ الدّين الجديدِ بأنَّهم ضالّونَ مُنحرفونَ عن دين الآباءِ؛ لقَصرِهم الاهتداءَ بتلك الآثارِ دونَ ما سواها، وجوَّزَ ابن عاشور: "أن يَكونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ مُتَعَلِّقًا بِـ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ بتَضْمينِ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ مَعنى (سائِرونَ)"[2].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

دلالةُ لفظِ (الآثار):

دَعـــوى عـــدمِ الـتَّـقـلـيـدِ مـعَ الـتَّـعـريـضِ بالأخبارِ النَّبويَّة

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ (الآثار) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ تقليدِهِم المَحْضِ للآباء، فإنَّهم كانوا يتَّبعونَ آثارًا وأخبارًا يَفهمونَها، ويعملونَ بمُقتضاها؛ إذ الأثرُ يأتي بمعنى الخَبر، كما أفادَ تسميةُ الخبرِ بالأثرِ التَّعريضَ بالأخبار النَّبويَّة، فهُم يتَّبعونَ أخبارًا وآثارًا أفضلَ من الآثارِ النَّبويَّةِ والأخبارِ الَّتي يَأتي بها مِن الوحي في زَعْمِهم.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾:

الانشغالُ بالآثار مُجانبةٌ للفطرة السَّويَّة

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ عن الاتِّباعِ والتَّقليدِ للآباء والأسلافِ بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ إذ تقييدُ الاهتداءِ بحالةِ السَّيرِ على الآثارِ المنقولةِ والأخبارِ المرويَّة عنهم كنايةٌ عن المتابعةِ لهم بالدِّيانة والمَنهج دونَ إعمالِ العقلِ والنَّظر، عندَ مُقابلةِ الأخبارِ النَّبويَّةِ بالآثارِ المَرويَّةِ عن آبائِهم وأسلافِهم، كما يحتملُ النَّظمُ الاستعارةَ؛ إذ "جَعَلوا اتِّباعَهُم إيّاهُمُ اهتداءً؛ لِشِدَّةِ غُرورِهِم بأحوالِ آبائِهم، بِحَيثُ لا يتأمَّلون في مُصادفةِ أحوالِهم للحقِّ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 187.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"